هل كان كافكا صهيونياً ؟

بقلم أنور الغساني

لم يكن فرانز كافكا (١٨٨٣ ـ ١٩٢٤) عند وفاته معروفا ، وقد بدأت شهرته بعد الحرب العالمية الثانية بارتفاع عدد طبعات مؤلفاته في اوربا واميركا ، ووصل تأثير هذا الارتفاع المفاجيء الى البلاد العربية في منتصف الخمسينيات عندما ظهرت الطبعة الاولى لقصته «المسخ» التي ترجمها منير بعلبكي .

لقد مارست مؤلفات كافكا ـ وخاصة في اعوام الستينيات ـ ولا تزال ، تأثيرا هاما في توجيه الادب القصصي الحديث في اللغة العربية ، ودخلت النقد الادبي العربي عن طريقها تعابير جديدة مثل: الاتجاه الكافكوي ، شخوص كافكا ، عالم كافكا، التأثر بكافكا.. الخ. لقد كانت روايات كافكا جزءا من مجموع الروايات والدراسات النقدية المعاصرة عن الرواية في الاداب الاوربية ، يمثل ادب كافكا بالنسبة لما يسمى اليوم بالرواية الجديدة في اوربا عنصرا هاما من عناصر بدايتها .

ان ادب كافكا ـ شكلا ومضمونا ـ لم يقيّم جديا من قبل النقد الادبي العربي حتى الان ، وبالتالي لم يقيّم موقف كافكا السياسي الاجتماعي من مشاكل عصره .

ان نتاج كافكا يقيم في اوربا واميركا انطلاقا من وجهتي نظر اثنتين : الاولى ، وجهة النظر البرجوازية التي تؤكد على ان فكر كافكا مواصلة لفكر تولستوي ولكن بشكل جديد يتميز بالجنوح الى الرمزية وبالبحث المتواصل عن الاله . فكر ديني لا عقلي ، ذاتي وجودي . انه البحث عن الخلاص الذاتي في عالم ومحيط لا يقدمان غير الضغط والقيود للفرد . الثانية ، وجهة النظر الماركسية التي ترى في ادب كافكا انعكاسا اصيلا لأزمة الفرد في المجتمع البرجوازي الذي يمر بفترة تحول الرأسمالية الى مرحلة الاحتكار والاستعمار ، فترة اشتداد التناقض بين الفرقاء الرأسماليين على المسرح الاوربي ونهوض الطبقة العاملة ، ومع الاعتراف بأصالة كافكا الادبية فانه لم يتخذ ، وفقا لوجهة النظر هذه ، موقفا ايجابيا موضوعيا من قضايا عصره الاساسية .

المسالة الاخرى التي ما زال النقاش جاريا حولها والتي لم يتوصل اي فريق الى حل بشانها هي : موقف كافكا ، كيهودي ، من المسالة اليهودية ومن الحركة الصهيونية . والغريب ان الصحافة العربية عامة والادبية منها خاصة ، لم تكتب شيئا حول هذه المسالة (١) .

يتحدث كافكا في يومياته (١٦ كانون الثاني ١٩٢٢) ص ٣٣٩ (طبعة بنكوين الانكليزية ١٩٦٤) عن التوق الانساني لبلوغ «الحدود الارضية الاخيرة» ، وعن نشاط الكاتب باعتباره جزءا من هذا التوق، معتبرا الكتابة «هجوما على الحدود ، التي لولا تدخل الصهيونية لامكن تحويلها الى عقيدة سرية جديدة اشبه بالقبلة» (القبلة ـ بفتح القاف والباء ـ تعليم صوفي عند اليهود) .

ويظهر كافكا حينا اخر كداعية للصهيونية ، وان يكن في نطاق علاقاته الشخصية . اذ يتحدث في رسالة كتبها الى صديقه ماكس برود (٢) عندما كان مقيما في نزل بمقاطعة بوهيميا الشمالية عام١٩١٩ (نشرها برود في الطبعات الكاملة لمؤلفات كافكا بعد ١٩٤٨) عن فتاة يهودية تدعى جي . دبليو تعرف عليها هناك . ويصف كافكا الفتاة بانها «شجاعة ، مخلصة ، وتحب التضحية ...» ثم يقول « هل تستطيع ان تعيرني ـ المرحلة الثالثة من الصهيونية ـ (٣) لكي اعطيها اياه لتقرأه ، او اي شيء اخر تراه مناسبا . انها قد لا تستطيع ان تفهم ما تقرأ وقد لا يهمها ، كما انني لن احاول الضغط عليها ، ولكن مع كل ذلك ، ويؤكد كافكا في رسالة ثانية «وفيما عدا ذلك فهي ليست ابدا مقطوعة الصلة بالصهيونية كما اعتقدت في البداية ، فقد قتل خطيبها في الحرب ، وكان صهيونيا ..»

يعلق برود على تعليق كافكا حول تدخل الصهيونية فيما اسماه كافكا الهجوم على الحدود الارضية الاخيرة ، بان كافكا لم ينتقد بذلك جوهر الصهيونية وانما بعض جوانب نشاطها السياسي ويرى برود انه «اذا فهمنا ان الصهيونية تعني فقط الاهتمام بالمؤتمرات والمناقشات والشؤون السياسية فبالامكان القول بان كافكا لم يشارك عمليا في الحياة الصهيونية . لقد كانت مشاركته اكثر شخصية ، وكانت بكليتها مشاركة «من الداخل» «صامتة وصادقة»....» (ماكس برود ـ فرانز كافكا : معتقده وآراؤه ـ الطبعة الالمانية ، سويسرا ١٩٤٨) . ويتوصل برود بذلك الى «ان كافكا اصبح صهيونيا ، مدفوعا بقواه الروحية السرية ، وقد سعى لتعلم اللغة العبرية ، وتوجد في مخلفاته مجموعة من الدفاتر المليئة بتمارين اللغة العبرية .... وحتى في السنوات الاخيرة من حياته كان يذهب للاستماع الى محاضرات عن التلمود في الكلية اليهودية ببرلين . وقد تطورت معرفته الى حد انه كان يستطيع قراءة رواية من تاليف برنر في نصها الاصلي ، وكان يحدثني في كثير من الاحيان عن رغبته في الهجرة الى ارض اسرائيل ليعيش هناك ويكسب عيشه باداء عمل يدوي بسيط» (المصدر السابق ص٧١) . ولكن كافكا نفسه يعود ليصرخ «ما الذي يجمعني واليهود ؟ ان من

الصعب القول بوجود شيء يجمعني حتى مع نفسي ، ان علي ان اقف ساكنا في زاوية ، واتقبل بسرور واقع انني استطيع ان اتنفس» (اليوميات ١٩١٠ ـ ١٩٢٣ الطبعة الانكليزية ص ٢٥٢) ويرد برود على هذه الصرخة بسخرية غامضة قائلا «ان يومياته مليئة بالاحلام وبدايات القصص القصيرة والرسومات» .

هنا يجب ان نتوقف قليلا :

اننا بالتأكيد امام حالة شيزوفرينيا نموذجية خاصة بالكاتب في المجتمع البرجوازي ، حيث يصبح من غير الممكن وصوله الى موقف موحد عام . ان رجلا مثلا كافكا ، نشأ في اسرة تاجر يهودي يمثل نموذج عقلية البرجوازية المتوسطة في مجتمع الرأسمال المتطور ، اسرة تمثل بصدق انغلاق الاقلية اليهودية الناطقة بالالمانية في براغ في بيئة تعيش فيها تيارات سياسية مختلفة . ان رجلا ينشأ في بيئة كهذه يصعب عليه اتخاذ موقف ايجابي موضوعي ، فكافكا الذي سحقته علاقة اسرته السلبية به واحتقار والده لنشاطه الادبي والذي لم يستطع ان يكتشف هوية القوى الايجابية الفاعلة في عصره ومجتمعه ليقف من ثم ، سياسيا ، الى جانبها باعتبارها تمثل روح التقدم العام وتطلعاته الذاتية هو نفسه ، وتقدم الامل في حل عقد المجتمع البرجوازي ، اي الطبقة العاملة ونظريتها وحلفاؤها . ان كافكا لم يستطع ان يتخذ غير موقف ذاتي مضطرب من المسألة اليهودية على الرغم من ان المسألة اليهودية كانت تقف يومئذ امام حلين : الاول ، حل صهيوني تروج له المنظمة الصهيونية ويقضي بالسيطرة على ارض اخرى، ودفع اليهود فيكل انحاء العالم الى الهجرةاليها واستعمارها وتحقيق امتداد رأسمالي في ارض اخرى تتم السيطرة عليها بالقوة، اذا اقتضى الامر (وقد وجد هذا الحل اول اطار عملي له في وعد بلفور ١٩١٧) . الحل الثاني ، هو الحل الماركسي القاضي باعتبار المسألة اليهودية في كل بلد ، جزءا من قضية الشعب العامة ونزع الطابع القومي الذي تسعى الصهيونية بشوفينيتها المعروفة الى تثبيته ، عنها .

ان برود ، المقيم حاليا في تل ابيب ، كان اقرب الاشخاص الى كافكا ، ويعتبر في مجال النقد الادبي «رجل كافكا» وهو يحاول حتى اليوم ان يصور كافكا كيهودي وعى الصهيونية بعمق ولم يتخذها واجهة شكلية . غير ان حجج برود يجب ان نمتحن بدقة ، فهناك احتمال قوي ان يفسر برود كل ما قاله كافكا وفق ما يراه ليخرج به في النهاية صهيونيا كاملا او صهيونيا غلب على امره . لنستعرض بعض الوقائع :

يذكر برود في كتابه (سيرة حياة فرانز كافكا ـ الطبعة الانكليزية ، نيويورك ١٩٦٤) بانه تعرف على كافكا في جامعة براغ خلال العام الدراسي ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ ، وبعد ذلك بعشرة اعوام اتصل برود بالمنظمة الصهيونية (ص ٤٢) ويروي انه وبعد انتمائه حاول اقناع كافكا بوجاهة السياسة التي تنتهجها المنظمة الصهيونية ، وكان كافكا يناقشه باستمرار حول هذه المسألة (ص ١١٢) . والظاهر ان برود لم يستطع اقناع كافكا كليا ولكنه يشير في موضع اخر الى مناقشة حدثت بينهما يوم الثامن عشر من كانون الثاني ١٩١٣ وهما يتنزهان في قارب على نهر المولدافا فيقول «ومنذ ذلك الحين اقترب كافكا بصورة واضحة من موقفي من الصهيونية ، وفي عامي ١٩١٨ـ١٩١٩ المشحونين بالاحداث ، وبعد تشكيل الهيئة الوطنية اليهودية وانشاء المدرسة اليهودية قام كافكا بتعضيدي بالنصائح والاهتمام والتشجيع والموافقة الطيبة، وكان اعترافه باهمية عملي، اعظم اسناد لي ـ واخيرا وعندما بدأ يدرس العبرية بجدية ، تجاوزني تماما واصبحت متخلفا عنه في هذا المجال » .

وماكس برود ، هو نفسه الذي يشير اليه كافكا ببرود وبانزعاج خفيف في يومياته ، ويكتب عنه فيها بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٣ ، قائلا : «انه يصبح غريبا بالنسبة لي اكثر فاكثر ، لقد كان في كثير من الاحيان غريبا بالنسبة لي ، والان اصبح انا ايضا غريبا بالنسبة له » .

لقد كان برود ، الاقل موهبة ، مبرّزا في الجانب العملي لنشاطه الادبي والسياسي ، ومنذ بداية وجوده في الجامعة وتعرفه على فيلكس ويلش (٤) الذي كان هو الاخر صهيونيا متعصبا وصديقا لكافكا ، حاول الاثنان جذب كافكا الاكثر موهبة والفاشل في الجانب العملي من نشاطه ، الى المساهمة في نشاطهما السياسي ، غير انهلا توجد اسانيد تاريخية تؤكد ان كافكا انتمى الى المنظمة الصهيونية في براغ رسميا ، وعلى الرغم من انه كان يعي «ازمته» كيهودي الا انه لم يمتلك الطاقة الضرورية ، على ما يبدو ، او الميل العدواني الشوفيني الخالص ، وهذا مرجح ، لاتخاذ موقف اكثر فعالية في اطار نشاط صهيوني رسمي .

قد يبدو هذا الاستنتاج مبكرا وناقصا بعض الشيء ، اذا اخذنا في اعتبارنا وثائق اخرى حاول برود تنفيذها ليثبت رأيه في صهيونية كافكا . مثال ذلك : الدراسة التي نشرها البير ميكوين في مجلة «الازمنة الحديثة» (تشرين الاول ١٩٤٥) ورأى فيها ان كافكا لم ير حلا للمشكلة اليهودية الا بالرجوع الى المسيحية . كما ان الناقد الماركسي الالماني كلاوس هيرمسدورف يرى في كتابه عن كافكا (برلين ١٩٦١) بأن كافكا لم يجد لا في المسيحية ولا في الصهيونية الحل المطلوب. وظل فرديا سلبيا في موقفه تجاه عصره. ويورد هيرمسدورف مقطعا مما كتبه كافكا يقول فيه «انني لم ابعث الى الحياة مجددا من خلال المسيحية الغاربة مثل كيركغارد ولم تقتنصني تلك الخيوط الهاربة لجلباب الصلاة اليهودي مثل الصهاينة ، انا اما نهاية او بداية» (ص ١٢٠ ، المجلد الخامس من المؤلفات الكاملة ، الطبعة الالمانية ، فرانكفورت ام ماين ١٩٤٦) .

ان التقييم الماركسيالعام لادب كافكا واضح ومحدد، وعلى الرغم من قلة حماس هذا النقد لذاتية كافكا المغلقة على نفسها والتي لا تفتح الا لاستلام «القنص اليومي» من الانطباعات ، التي تعود فتعكس بعد عملية «هضم» سرية ، بصورة انسانية الى حد ما ، بالرغم من كل هذا قيّم النقد الماركسي الجانب الايجابي لدى كافكا تقييما موضوعيا واعتبره يتمثل في تصوير كافكا الجيد لسلبية البرجوازية الصغيرة في التكوين الاجتماعي الرأسمالي . ولكنه لم يصل الى قول فصل في علاقة كافكا بالصهيونية .

اما النقد الادبي البرجوازي ، فهو في كله اكثر بكثير من النقد الادبي الماركسي الخاص بكافكا ، وفيه لا توجد وحدة في الاحكام .

لنأخذ المسألة من ناحية اخرى ولنقترب منها اكثر . لنمتحن مثالا جديدا من برود الذي كتب المجلدات عن صديقه كافكا واثرى من وراء ذلك . يقول برود «ان كافكا اكتشف بحكمته ذلك العنصر الذي لا يمكن اتلافه لدى الانسان ، ان لكافكا علاقة ايمان ايجابية بالجوهر الميتافيزيقي للعالم ، انه بطل ديني من مرتبة الانبياء ...» (فرانز كافكا : معتقده وآراؤه ص ٧) .

ماذا يعني هذا ؟

ان برود يحاول عن طريق طرح كافكا كخليفة يهودي لتعاليم تولستوي التأكيد على ان كافكا لم يكن غير «الصورة النبيلة» !! للكاتب الصهيوني الذي يؤمن تقليديا بمقولات دينية متعصبة غامضة تؤلف بمجموعها جوهر الصهيونية . ويريد برود بذلك التوصل الى ازالة كل امكان لاكتشاف اي تناقض ينسف مقولته عن صهيونية كافكا الذاتية غير الرسمية (كما يحب هو ان يصورها) ، اذ ماذا يعني مصطلح الجوهر الميتافيزيقي للعالم ؟ انه ليس اكثر من هلوسة

ضوفية ، وعلى الرغم من أن الكاتب الذي توجهه دائما بوصلة مجهولة نحو التأمل الميتافيزيقي (وقد يكون ذلك مبررا بالنسبة لكافكا بسبب ظروفه الذاتية ، مرضه ، تعاسته ، فشله مع النساء ... الخ) يظل ضعيف المناعة تجاه النظريات الرجعية (كالصهيونية مثلا) ، الا ان انهماك كافكا الشديد بالبحث عن تفسير للتعاسة العامة لم يترك له فضلة من طاقة تمكنه من التحول الى الاهتمام بالجهد الشوفيني للصهيونية او المساهمة فيه بجدية .

ان هذا امر يجب ان يسجل لصالح كافكا ، على الرغم من اننا لا نعرف فيما اذا كان مقصودا منه ام غير مقصود .

والظاهر ان كافكا من الناحية الاخرى ظل خلال بعض «الصحوات» العملية يجتهد للمحافظة على حدود كيانه كيهودي وكيان الاقلية اليهودية (اهتمامه بالمسرح اليهودي مثلا) وعلى علاقته بالمنظمة الصهيونية ، عن طريق اثنين من اشهر الصهيونيين الشباب وأقربهم اليه في براغ يومئذ وهما : ماكس برود وفيلكس ويلش . ان هذا التناقض بين حالة «الاهتمام الجدي المحدود عامة» وحالة «الاهتمام الجدي غير المحدود احيانا» يمكن تفسيره بعجز كافكا عن القبول بمفهوم واحد ثابت عن العالم يمكنه من تحديد موقفه من مشاكل عصره الاساسية ، وعجزه بالتالي عن تحديد موقفه علميا من المشكلة اليهودية وبالتالي من النشاط الصهيوني ، ولكن موقفه العام من الصهيونية ظل من الناحية الاخرى مطبوعا بالعاطفة ، وبالحاجة الطفولية الى الاتصال بالمشيمة القومية حتى ولو كان هذا الاتصال يجري عن طريق قنوات رجعية (ولا ارجح ان كافكا كان عاجزا عن تصور المدلول الحقيقي للدعوة الصهيونية للسيطرة على ارض فلسطين واقامة دولة لليهود عليها وما يمكن ان يجلبه هذا المسعى من كوارث لسكان فلسطين نفسها).

وهذا امر يجب ان يسجل ضد كافكا .

انور الغساني

لايبزغ

---

١ ـ لعل السبب في عدم اقدام المترجمين العرب على ترجمة يوميات كافكا (١٩١٠ ـ ١٩٢٣) رغم مضي اعوام على ظهورها يرجع الى وجود اشارات في بعض مواضع هذه اليوميات الى موقف كافكا من المسالة اليهودية ومن الصهيونية وان تكن تلك الاشارات لا تشير بالضرورة الى موقف تأييد او تأييد صريح للصهيونية .

٢ ـ ماكس برود : من مواليد براغ (٢٧-٧-١٨٨٤) روائي وشاعر ومسرحي صهيوني ، هاجر الى تل ابيب عام ١٩٣٩ واشتغل في مسرح هابيما العبري . يعتبر حجة في ادب كافكا وكان من اقرب اصدقاء كافكا . قام بنشر كافة مؤلفات كافكا بعد وفاته على الرغم من ان الاخير اوصى بحرق كل مخطوطاته دون قراءتها . من اعمال برود (ما عدا كتبه العديدة عن كافكا) رواية (اونامبو) عن حرب العرب مع اسرائيل سنة ١٩٤٨ وكتاب عن الصهيونية ألفه بالاشتراك مع فيلكس ويلش. يدعو في مؤلفاته الى وجهات نظر برجوازية انحطاطية ، وصهيونية عنصرية . كاتب من المرتبة الثانية .

٣ ـ تحليل عن وضع الحركة الصهيونية ، نشر يومئذ في ملحق لاحدى المجلات .

٤ ـ فيلكس ويلش : ثاني صديق مقرب الى كافكا بعد برود . نشر هو وبرود عام ١٩٢٥ كتابا بعنوان «الصهيونية ، كايديولوجية».

صدر حديثا

التكسب بالشعر

الجزء الأول

الدكتور جلال الخياط

تأطير وتجميع وحصر لظاهرة التكسب بالشعر منذ العصر الجاهلي حتى الوقت الحاضر .

لقد جعت حتى اكلت النوى المحرق، ولقد مشيت حتى انتعلت الدم ، وحتى تمنيت ان وجهي حذاء لقدمي .. افلا رجل يرحم ابن السبيل ؟ ـ شاعر ـ

✶

اوصيك بالمسالة ، فانها تجارة لن تبور .
ـ الحطيئة ـ

✶

والله لأني على النار اذا دخلت على الخلفاء والملوك لاني اذا كنت عندهم فلا أملك من امري شيئا . ـ ابو نواس ـ

✶

شاعر « العزيز » وما بالقليل ذا اللقب
ـ شوقي ـ

✶

اصطناع الرجال صناعة قائمة بذاتها .

✶

نهى الخليفة عمر (رض) الحطيئة عن الهجاء قائلا : « اياك وهجاء الناس . قال : اذن يموت عيالي جوعا ، هذا مكسبي ومنه معاشي » .

✶

المتنبي مدح بدون العشرة والخمسة من الدراهم .

حلف عمران بن حطان ان لا يكذب في شعر باعة الشعر اكثر من عدد الشعر .
ـ الصاحب بن عباد ـ

✶

وقال الامين لابي نواس : انت تتكسب بشعرك اوساخ ايدي جميع الناس .

✶

خلصني ايها الرجل من التكفف ، انقذني من لبس الفقر ، اطلقني من قيد الضر ، اشترني بالاحسان ، اعتبدني بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح ، اكفني مؤونة الفداء والعشاء .
ـ ابوحيان التوحيدي ـ

✶

انا لا امدح الرجال انما امدح النساء ـ عمر بن ابي ربيعة ـ

✶

الشعراء المداح لم يخلقوا بلا معدة . ـ زكي مبارك ـ

✶

ايها الكهل اني اجلك عن الشعر فسل حاجتك
ـ الفضل المسلم ـ بن الوليد ـ

منشورات دار الآداب ـ بيروت